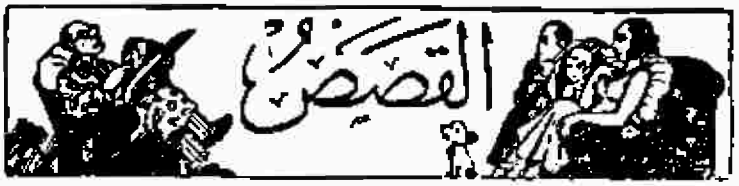

الكهـــلان

للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه

— هل هذا كتاب أيها الأب أزان ؟

— نعم يا سيدي . أنه آت من باريس .

كان الشيخ الوقور ينظر إلى كل ما هو قادم من باريس في رهبة وإعجاب ، ولذلك سلم لي الرسالة بعناية واحترام .

ولما كنت رجلاً لا أسير وراء الخيال ، ولا أبالي بسحر العاصمة ، فقد ألقيت نظرة على الرسالة القادمة في الصباح المبكر وكأنها نذير بمجهول زائر سأبتلي بمقدمه هذا اليوم . ولكني كنت مخطئاً ، فقد كانت الرسالة تتضمن الآتي :

« عزيزي دوديه — يجب أن تغلق الطاحونة اليوم وتذهب في مهمة لأجلي إلى إيجوبر . إنها على بعد عشرة أميال ليس إلا من الطاحونة ، نزهة صباحية لشباب مثلك (ولم يذكر نزهة أوبتي !) وعندما تصل ، اسأل عن ملجأ الأيتام ، فبجواره تقع دار صغيرة ذات نوافذ رمادية ، وحديقة خلفية . وستجد الباب دائماً مفتوحاً ، فادلف إلى الدار دون أن تطرقه . ثم صح بأعلى صوتك « صباحاً طيباً يا أصدقائي ، إني صديق موريس » وعندئذ ستشاهد عجوزين ، من الحفريات ، قبل عهد الطوفان ، غارقين في مقعدين أكثر قدما منهما ضاقتهما لأجلي كما لو كانا من أجدادك الطيبين . ثم تحدث معهما فسرعان ما يشتركان معك في حديث واحد لا ينتهي — حديث موضوعه موريس . وإن يكلا مطلقاً من تقريظ كال منقطع النظير لذلك الأنموذج الكامل الفريد الذي لم يكن ولن يكون . وأرجو ألا تتخلى عني ، ولا تتردد في الإجابة عن أسئلتهما . اضحك كما تشاء ! ولكنهما جداي ، رفيقاي في حياتي الطويلة إلى عشر سنوات مضت . نعم ، إنها عشر سنوات منذ أن رحلت عنهما قاصداً باريس .

« إن هذين الأثرين الواهنين قد يتناثران في الطريق إذا حاولا القيام برحلة إلى هنا . فأرجو يا صديق الطحان المحترم أن تقوم بواجبات البنوة بدلاً مني وتقبلهما . لقد انتهيت من رسم صورة لك بالحجم الطبيعي عندهم ، ولونت فيها ملامحك باللون الوردي ... » وسارت الرسالة على هذا النمط حتى نهايتها.

وهكذا شاء حظي العاثر ألا أستمتع بهذا اليوم الفريد ؛ فأظل بالدار غارقاً في بحار أحلامي في ركن تغمره الظلال . وها أنذا مرغم على الابتعاد عشرة أميال ، سائر تحت وهج الشمس ومثار الغبار يؤذي عيني . ولكن ، كل شيء يهون في سبيل الصديق، وأغلقت الباب ، وأدرت المفتاح ، ومضيت ومعي متبغي وعصاي .

وصلت إلى إيجوبر قبيل الساعة الثانية . كانت القرية تكاد تكون خاوية ، كان أهلها يعملون إذ ذاك في الحقول . ولم أجد هناك بالطبع ألا أتاناً تتمتع بضوء الشمس ، وحماماً يحوم حول نافورة الكنيسة ، وجنادب — أكثر نشاطاً من زميلاتها في أوراني — تتعالى أصواتها حول شجرة الدردار الأخضر ، وقد أغبرت أجسامها . وهكذا لم أشاهد مخلوقاً يرشدني إلى ملجأ الأيتام . وفجأة لاحت (جنية) طيبة لنجدتي . فقد لمحت عجوزاً هزيلة منطوية على نفسها في مدخل . فسألتها عن الطريق ، فأشارت بأصبع متخاذلة . وبدا لي الملجأ كأنما ظهر بفعل عصا سحرية . كان بناء شامخاً قديماً قاتماً ، يعلوه صليب من الآجر ، وقد نقشت على مدخله كتابة لاتينية ، وقامت بجواره دار صغيرة ، ذات نوافذ رمادية وحديقة خلفية . كانت مقصدي ، فدلفت إليها دون أن أقرع بابها .

إن مشهد تلك الدار قد نقشت في ذاكرتي إلى الأبد : تلك النظافة التامة ، وذلك الهدوء الشامل في الردهة الطويلة ، والجدران الوردية ، والحديقة بأزهارها تتمايل مع النسيم ، وقد بدت خلال النوافذ ذات الألوان الزاهية ، وصفائح الجدران المزدانة بصور الزهر ، وقد حالت من القدم . وخيل إلي كأني في دار أحد أشراف سيدان . وسمعت خلال باب منفرج نصف انفراجة دقة ساعة ، وصوت طفل يقرأ في صوت جهوري ، كلمة كلمة ، ومقطعاً مقطعاً « ثم — أنا — القديسة — ايرينيه — صحت — أنا — دقيق — الآله — ويجب — أن — أطحن — وأنثر — بأنياب — تلك — الوحوش ... » واقتربت وأنا أمشي على أطراف قدمي وتطلعت .

شاهدت في غلالة من ضوء النهار الساكن ، كهلا منفرج الفم ، واضعاً يديه على ركبتيه ، ومستغرقاً في سبات عميق على

مقعد . كانت وجنتاه موردتين ، وجلده مجعداً حتى أطراف أصابعه . وجلست تحت قدميه فتاة صغيرة ، ترتدي (شالا) طويلا أزرق اللون ، وقلنسوة صغيرة زرقاء — لباس الأيتام . وكانت هي التي تقرأ سيرة القديسة إرينيه من كتاب يكاد يقارب حجمها . وكانت القراءة العجيبة تفعل فعل الخدر في الحجرة الساكنة . فقد كان كل من الكهل في مقعده ، والذباب في السقف ، والكناري في القفص ، في سبات عميق . ولم يعكر صفو الحجرة سوى دقات ساعة الجد ، وقد تدفقت أشعة الشمس خلال النافذة بذراتها الكثيرة المتراقصة . وكانت الطفلة لا تزال تقرأ وسط ذلك النعاس الشامل « وسرعان — ما — اندفع — أسدان — صوبها — وافترساها ... » ودلفت إلى الحجرة عند هذه الرحلة الخطيرة !

كان من الجلي أن الأسدين الضاريين لم يحدثا أدنى اضطراب لأهل الدار . ولكن ، عندما لمحتني الفتاة ذات الرداء الأزرق ، أسقطت الكتاب وقد ندت عنها صرخة رعب . واستيقظ الكناري والذباب ، ودقت الساعة ، وقفز الكهل في فزع وذهول . ووقفت بالمدخل حائراً ، ولكني تذرعت بالشجاعة وصحت قائلاً « عم صباحاً يا صديق ! أنا صديق موريس » .

وفعل موريس فعل الطلسم . هرول الكهل صوبي مفتوح الذراعين ، وعصر يدي ، ثم جعل يجول في الحجرة ويصيح في في ذهول « يا الهي ! يا الهي ! » .

وأشرقت كل تجعداته ، وتحول وجهه قرمزيا من الحماس . ثم تمتم قائلا « أواه يا سيدي ! أواه يا سيدي ! » .

ثم هرول صوب الباب يصيح قائلا — هلم يا « ماماه » ، اسرعي يا « ماماه » . وفتح باب في الردهة ، وسمعت صوت حركة ، ثم دلفت « ماماه » .

ما أرقه مشهداً عاطفاً مثيراً ! كانت السيدة العجوز ترتدي وشاحاً ورداء كرمليا باهتاً ، وتحمل في يدها منديلاً مطرزاً . وما أشد الشبه بينهما وياله من شبه عجيب ! أن أقل تبديل في الملبس ، من قلنسوة أو ما شابه ذلك ، وإذا بك تحسب الجد جدة . فلم تكن تختلف عنه إلا في كثرة تجاعيدها . وكانت لهما فتاتان صغيرتان من الأيتام ترعيانهما — الكهولة ترعاها الطفولة ! وانحنت الجدة انحناءة منخفضة ، كما كان يحدث في عهد الفروسية ولكن لم يطلق الكهل صبراً لذلك ، فقطع الاحتفال القصير قائلا — « ماماه » هذا صديق موريس .

وارتجفت السيدة وكأنها ورقة من شجر الحور ، وسال الدمع على وجنتيها ، وسقط منديلها ، واحمر وجهها أكثر احمراراً من وجه الجد . ومع أن الكهلين لا يحملان في عروقهما سوى قطرة واحدة من الدم ، فقد كان أقل انفعال يؤثر عليهما يكسي وجهيهما بقناع قرمزي . وقالت السيدة للفتاة الزرقاء — اسرعي ! مقعداً للزائر . وقال الكهل لفتاته — افتحي النوافذ . ثم أخذ كلاهما بذراعي وسارا في خطى قصيرة إلى النافذة حتى يتفحصا الزائر ، واستحضرت المقاعد وإذا بي جالس بينهما ، وقد وقفت الطفلتان خلفهما . وأخذت الأسئلة تترى علي : كيف حاله ؟ كيف يقضي وقته ؟ لماذا لم يأت لمشاهدتنا ؟ هل هو سعيد ؟ وهكذا انهالت أسئلتهما قرابة الساعة .

وتحملت ذلك في جلد ، وأخبرتهما بكل ما أعرفه ، بل اختلقت ، بل حتى جاملت . وقلت — ما أرق لون غلاف الحائط يا سيدتي ! إنه لا زوردي جميل ، مزدان بأفنان الورود .

فقالت — حقاً ؟ ثم أضافت وهي تلتفت إلى « باباه » — أليس هو شاباً وسيما ؟ فقال — أجل ، أجل . شاب وسيم !

وشاهدت أثناء حديثي ، إيماءات من الرأسين المشتعلين شيبا ، وإشراقات على الوجهين المجعدين ، وضحكات صبيانية جزلة ونظرات متبادلة . ثم التفت إلى الكهل قائلا — ارفع صوتك . أنها لا تكاد تسمع . وأخذت « ماماه » بثأرها فقالت — ارفع صوتك . إن سمعه ثقيل .

وأطمت ، فابتسما ابتسامة شكر ، وظلا يبتسمان وهما يسبران غور عيني ، ويبحثان فيهما عن شبيه لولدهما . ونظرت في أعينهما ، فشاهدت في حلكتها كأنما بدا خلال الضباب المخيم عليها وجه صديق يبتسم . وفجأة صاح الرجل في عجب وهو يهب من مقعده — « ماماه » أتعلمين ؟ ! لعله لم يتناول غداءه بعد .

وخشيت أن تكون أفكارها قد انتقلت بها إلى موريس ، فسارعت أؤكد لها أن الصبي العزيز لا يتناول غداءه متأخراً

وقال الرجل — إني أعني صديق موريس .

فقالت — أوه ، عفواً يا سيدي ، عفواً كثيراً .

كان جوعي قد زادت حدته ، ولذلك لم أراوغ .

وقال للطفلتين — اسرعا أيتها الصغيرتان الزرقاوان ، وضعا غطاء يوم الأحد وسط المائدة واستحضرا أنفر الأواني المنمقة بالزهور . اسرعا ، لا تضحكا كالأوز الابله ، هيا .

وفي لمح البصر كان الطعام معداً . وقالت الجدة وهي تقودني

إلى المائدة — هذه وجبة بسيطة وأرجو المعذرة لعدم اشتراكنا معك . فقد تناولنا طعام الغداء قبل الظهر .

لقد كان الكهلان كلما حل عليهما ضيف يقولان دائماً أنهما تناولا طعام الغداء قبل الظهر !

كان الغداء يتكون من قطعتين من بياض البيض ، وبعض التمر ، وقطعة من الحلوى تدعى « البارك » تكفي لأن تطعم الجدة وكناريها مدة أسبوع . واتجهت إلى الأنظار أثناء تناول الطعام . كانت الصغيرتان الزرقاوان تتخافتان ، والكناري يغرد قائلا — أوه ، انظروا إلى النهم الشره الكبير ، أنه يلتهم كل « البارك » .

كان ذلك النهم الشره الكبير — في الواقع قد التهم كل ما على المائدة من طعام دون أن يشعر بذلك . فقد كنت غارقاً في تأمل الحجرة الهادئة المشرقة ، وما يفوح منها من أريج الذكريات .

ووقعت عيناي على فراشين صغيرين ، يكادان يشبهان للمهد ، وتخيلتهما عند الفجر ، وما زالت ستائرها الزركشة الحواشي منسدلة ، والساعة تدق ثلاثا ، وقت استيقاظ الكهلين . وسمعتهما يتبادلان الحديث :

— أنائمة أنت يا « ماماه » ؟

— كلا يا عزيزي .

— أليس موريس شاباً وسيما ؟

— أجل ، أنه شاب وسيم ، وسيم .

ثم كان مدار حديثهما كله عن موريس . لا شيء غير موريس . من الصباح الباكر إلى المساء الندى !

وبينما كنت غارقاً في تأملاتي ، إذ بمأساة تجرى فصولها في طرف الحجرة . كان الكهل واقفاً على مقعد ، يجاهد جهاد الأبطال ليصل إلى قارورة من الشراب المحفوظ ، قائمة على قمة الصوان ، لم تمسها يد منذ عشر سنوات ، بل ظلت تنتظر عودة موريس . وأخذت زوجه تثنيه عن القيام بهذه المحاولة ، ولكن الجد كان قد وطد العزم على الحصول عليها وفتحها تكريماً لضيفه .

وكان يجاهد بكل عصب من أعصابه ، وعضلة من عضلاته ، والصغيران ممسكان بالمقعد ، والسيدة الكهلة تنتظر في خوف ورعدة وقد ترددت أنفاسها ، وذراعاها ممتدتان لتنقذ البطل عند الضرورة ، وأخيراً ، وبعد مجهود فائق ، نال الكهل مكافأته ، ودفع بالقارورة إلى الجدة وقد أشرق وجهها . وهبت رائحة البرغموت الشذية من الملبوسات داخل الصوان .

واستحضروا قدح موريس الفضي وامتلأ بالشراب حتى حافته . نعم ، كان موريس يعشق هذا الشراب . وهمس الجد وهو يناولني القدح وقد سال لعابه في تلذذ ابيقوري — أنت مجدود ، فإنك لا تحصل على مثل هذا الشراب في الطاحونة إن جدته تحفظه له . ومهما كانت الجدة خبيرة في حفظ الشراب ، فإنها فشلت هذه المرة ، فقد نسيت أن تحليه بالسكر . على أية حال ، يجب أن تتغاضى من شرود ذهن الكهول . ووقفت لهذه المناسبة ، وصررت على أسناني ، ثم جرعت الشراب دون أن تطرف عيني . وهمست في انفراد بيني وبين نفسي — سيدتي أن شرابك تتلبع !

وعندما قمت أستأذن في الانصراف ، ألح على الكهلان أن أستمر في سرد حقيقة قصة ذلك التال الكامل ، ولكن الوقت كان قد أزف للرحيل بعد أن خبا الضوء ، لا سيما وأن الطاحونة « على بعد عشرة أميال ليس إلا ! » .

وهب الكهل واقفاً وهو يقول — معطفي يا « ماماه » من فضلك . يجب أن أرافقه إلى ما بعد الميدان .

وأشارت « ماماه » إلى برودة نسيم الليل ، ولكنها لم تثبط نزوة الكهل . وبينما كانت تساعده على ارتداء معطفه الاسباني المزين بالأزرار الصدفية ، وقد انتثرت عليه بقع السعوط ، إذ قالت له — والآن يا عزيزي ، عدني وعداً مخلصاً ، إلا تتأخر طويلا فأجاب الكهل ، متضمراً ، في لهجة تدل على أنه لن يأتي الدار قبل الصباح — نعم ! كلا ! ربما أتأخر ، وربما لا أتأخر — لا أعرف ! ولا أبالي ! — لا تنتظري يا عزيزتي ، فمعي المفتاح .

ونظر كل منهما في عيني الآخر ، ثم انفجرا ضاحكين حتى سالت دموعهما . وضحكت معهما الصغيرتان الزرقاوان . وشاركهم الكناري يغرد مع مرحهم . وإني أعتقد بيني وبينكم — أن الشراب قد أخذ رأسيهما وجعلها في نشوة .

كان الظلام يخيم رويداً رويداً ، عندما غادرت الدار يرافقني الجد . وكان الرجل يسير في زهو واعتداد في ذلك المساء خلال القرية ، وقد اشتبك ذراعه بذراع صديق موريس . فكيف يشعر بجارته الصغيرة الزرقاء وهي تتبعه من بعد حتى تعود به إلى داره ؟ وكانت الجدة واقفة على مدخل الدار تراقبنا ، وقد أشرق وجهها ، وهي تقول — أرأيت ؟ أن رجلي لا يزال قادراً على المشي !

محمد فتحي عبد الوهاب